جواد صيداوي

نقولا زيادة

# بهجة الحياة وجدواها

لن تصرفنا وحشية العدوان الإسرائيلي الحاقد على بلدنا، ولا المجازر البربرية التي يرتكبها، عامدا، في حق أهلنا واطفالنا ولا هذه المراوغة الدنيئة من الرئيس الاميركي ومن سائر الحكام عربا واجانب، السائرين، بذل، في ركابه... لن يصرفنا ذلك كله من العودة الى منابع الضوء التي فجرها الكبار من أدبائنا ومفكرينا الراحلين، قديما وحديثا، وفي طليعة هؤلاء نقولا زيادة الذي غادرنا إبّان هذه المحنة الكبيرة، بعد عمر مديد ربما لكي لا يشاهد الثكالى من الأمهات، في الجنوب اللبناني وهنّ يلملمن اشلاء اطفالهن من بين الركام.

لم يبلغ نقولا زيادة المئة سنة مثلما "قرّر" ولكنه لم يسأم، وهو في التاسعة والتسعين، "تكاليف الحياة" مثلما سئمها زهير بن ابي سلمى وهو في الثمانين. ولم يجد نفسه مكرها على "لزوم العصا تحنى عليها الاصابع" مثلما تصور لبيد بن ربيعة نفسه اذا "تراخت منيته"، ولم يبك عهد الشباب وريعانه مثلما بكاهما العديد من الكتاب والشعراء على مرّ العصور، لا شيء من ذلك، بل استمر نقولا زيادة في شيخوخته الطفلة هو هو، مفعما بالنشاط الخلاق، في نطاق اختصاصه، ومقبلا، في الوقت ذاته، على الحياة كأنه عائش ابدا، حتى اذا جاءه الموت، كان، اي الموت، بمثابة "تتويج" لحياة عمل نقولا زيادة على إعلاء شأنها والارتفاع بمستواها.

لم يكن نقولا زيادة، في أبحاثه المستفيضة، عن ماضي العرب وحاضرهم، مؤرخا تقليديا يكتفي بسرد الاحداث كما قرأها، في امهات المراجع العربية، أو عايشها في عمره المديد، وانما كان يستقرئ تلك الأحداث بعمق ذكي، في اسبابها ومفاعيلها ونتائجها لا لكي يعطي "درسا" لمن يقرأه، كاتبا، او يستمع اليه، محاضرا بل لكي يحث القارئ او المستمع على التفكير، واستخلاص العبر، واستشراف آفاق المستقبل لكأنه يقول للقارئ او المستمع، ما قاله ابن الرومي في مطلع احدى قصائده:

امامك فانظر أي نهجيك تنهج
طريقان شتّى مستقيم وأعوج

وهو في عودته الى ماضي العرب، والى تاريخ الفكر العربي والإسلامي لا يجنح الى "تقديس" اعلام الماضي ومآثرهم في "التشريع والتاريخ والجغرافية والفلسفة، والعلم الطبيعي والرياضي، والطب" بحسب قوله، او الوقوف عند ما قدمه هؤلاء للانسانية في مجالات الفكر المختلفة، بل تغدو العودة الى الماضي، في أبحاثه، سفرا نحو المستقبل.

اما نقولا زيادة الانسان فإن الحديث عنه حديث طويل لا تتسع له هذه الزاوية. كان، رحمه الله، يعشق الحياة ويعشق كل ما في الحياة من طيبات كأنه يشارك ناظم حكمت في قوله: "الحياة جميلة يا صاحبي". لدى خروجنا معا من احدى الندوات الثقافية، قبل سنوات قليلة، سألته: "اما زلت تشرب اصفر؟" اجاب مبتسما: "الابيض والأحمر ايضا"، هذا، فضلا عن دماثته، وسخريته العذبة، وندواة مجلسه، وسرعة بديهته، ونفوره من التصنع في القول او في السلوك.

jawadsidawi@albaladonline.com